مؤسّسها الأب لويس شيخو اليسوعيّ
عام ١٨٩٨

السّنة التّاسعة والسّبعون الجزء الثّاني تمّوز – كانون الأوّل ٢٠٠٥

البُعد الروحيّ والأخلاقيّ
في كتابات ميشال شيحا السياسيّة*

الأستاذ جُو عيسى الخوري**

لا يخفى على العارفين أنّ ميشال شيحا كان إنسانًا متعدِّد الوجوه والمواهب: منظِّرًا ومحلِّلًا سياسيًّا، خبيرًا اقتصاديًّا، صحافيًّا، شاعرًا، وعلى الرغم من أنّه لم يعمِّر طويلًا، فإنّه لم يترك مجالًا من مجالات العلم والثقافة إلّا خاضه أو كاد. وقد كان من تنوّع مؤلَّفاته أنّه دفع بعضهم إلى القول بأنّ عَدَّ الموضوعات التي لم يتطرَّق إليها أسهل بكثير من عَدِّ التي خاضها فعلًا.

من ذلك الإنتاج الذي تناوله الشُرّاح وأثار مناقشاتٍ شائقة، وإن كانت شائكةً في بعض الأحيان ولم تَخْلُ من التشنّجات المؤسفة، نذكر هنا بُعدًا لا يبدو لنا أنّه استرعى الانتباه بقدرٍ كافٍ، هو البعد الروحيّ والأخلاقيّ. إلّا أنّنا لن نذكر هذا البُعد في مؤلَّفات شيحا الشعريَّة طبْعًا، لأنّ الشعر نفسه هو أساسًا مصدرٌ من مصادر الروحانيّة، بل في مؤلَّفاته السياسيّة، حيث لا يبدو هذا البعد على القدر نفسه من البداهة، أقلَّه من الناحية المبدئيّة. ومع ذلك فإنّه يحتلّ فيها مكانًا مميَّزًا، لا بل إنّه يتبوَّأُ رأس الهرم في تراتبيّة القواعد التي نادى بها هذا «الفقيه»

(*) نصّ البحث الذي قُدِّم يوم ٢٠٠٤/١١/١٧ في أثناء ندوةٍ عُقدت بـ«مكتبة البُرج» (بيروت)، لمناسبة مرور خمسين سنة على وفاة ميشال شيحا.

(**) محامٍ في الاستئناف، أمين السرّ العامّ في «مؤسّسة ميشال شيحا».

مُفَلْسِفُ النظام السياسيّ اللبنانيّ، ويتحكَّم بسائر القواعد والأحكام، ويجعلها تأتَمِرُ بأوامره، إن جاز لنا هذا التعبير، لما فيه من شَبَهٍ بالمفردات والمفاهيم العسكريّة التي قلَّما تتلاءَم والروحانيّة أو الأخلاق.

لا شكَّ في أنّ البعد الروحيّ والأخلاقيّ هذا، ينبغي أن يتَّسِم في نظر ميشال شيحا، بطابع شموليّ وينطبق على سياسة جميع الأمم. أفلم يَكْتُب، ولفائدة جميع الناس، أنّ «للبعدَين الروحيّ والأخلاقيّ تأثيرهما المباشر في الأمور الزمنيّة»، وأنّ «الأنظمة السياسيّة التي تتجاهل الشأن الروحيّ، وتتَّسم أخلاقيّاتها بالسطحيّة والزيف، لا تستطيع أن تحيا إلّا حياةً مضطربةً لا يُضْمَنُ لها مستقبل» (**خواطر**، ١، ص ١٠٧)[١]؟

أمّا لبنان، فإنّ علاقته بالبُعدَين المذكورَيْن تتعدَّى مجال التأثير، لأنّ هذا البلد هو، بتركيبه، بلد روحيّ في جوهره، ودأَبَ ميشال شيحا على العودة دومًا وبلا هوادة إلى أوّليّة هذا البُعد. ففي بلد مثل لبنان، «ينفرد بين سائر بلدان العالم ويقوم فيه الحوار كلّ يوم بين الإسلام والمسيحيّة»، على حدّ ما ذكّر به حديثًا الأستاذ غسّان تويني في إحدى الندوات، تتَّسِم الروحانيّة بطابع خاصّ لا يُقارَن بما تتَّصِف به في غيره من البلدان، وبأولى حجَّة لا يجوز أن يُخْلَط بينه وبين سواه. ذلك بأنّ تركيب-لبنان، القائمَ على اجتماع أُسرٍ روحيّة، يجعله بلدًا فريدًا، «تقوم مسوِّغات وجوده بمعظمها على أساسٍ روحيّ» (**السياسة الداخليّة**، ص ١٨٦)[٢]. وقد لاحظ شيحا من هذا القبيل أنّه «حين جعل لبنان من التمثيل الطائفيّ أساسًا لحياته السياسيّة، أبرز للعيان أولويّة البعد الروحيّ، **فوق ما هي بارزة في غيره من الدول**» (**السياسة الداخليّة**، ص

(١) «Les régimes politiques qui ignorent le spirituel, ceux dont la morale est superficielle et factice, ne peuvent vivre que d'une vie précaire» (*Essais*, I, p. 407).

(٢) «Dont les raisons d'être sont pour la plupart d'ordre spirituel» (*Politique intérieure*, p. 186).

٢٦١)[٣]. ولم يزل يُبرز هذه الخصوصيّة، جاعلًا من البعدَين المذكورين مذهبًا سياسيًّا حقيقيًّا ومصدرًا رئيسًا يجب أن تتأصَّل فيه جميع الأبعاد الأُخرى.

ولكن، إن صحَّ أنّ بلدنا يختلف هذا الاختلافَ عن سائر البلدان، فمن واجبنا، قبل كلّ شيء، أن نعيَ هذا الأمر، ونتجنَّب أن نَنْقُل إلى نظامنا السياسيّ الأفكارَ المُسْبَقة أو المستوردة، أيًّا تكُن صحّتُها ومبرِّراتُها. لذا، مع أنّ ميشال شيحا كان ليبراليًّا راسخَ المعتقد، ومحاميًا مندفعًا عن الحرّيّات، فإنّه كان يعارض، باسم خصوصيّة لبنان نفسها، نقل الليبراليّة إليه، بدون قيدٍ أو شرط، لكونها مذهبًا «مستوردًا». وقد كتب في هذا الصدد: «من الليبراليّة إلى الشيوعيّة والاشتراكيّة، فإلى الديمقراطيّة (الأصيل منها والزائف) وإلى النازيّة والفاشيّة البغيضتين أيضًا، وعهدُنا بهما لا يزال قريبًا، ولا نذكر الانتهازيّة الأزليّة... أفتصلح لنا حقًّا هذه المذاهب السياسيّة ونحن **أناس اجتمعنا في وطن روحيّ** (قبل كلّ شيء)، وطنٍ يحفظنا ويرعانا باسم روح الإيمان والتسامح والحرّيّة، منذ القِدَم؟» (**السياسة الداخليّة**، ص ١٠٤)[٤]. وهكذا كان ميشال شيحا لا يفرِّق بين مُجمل المذاهب الاقتصاديّة والسياسيّة، ويرفضها بدون تردُّد، أيًّا كان مصدرها (من الشرق أم من الغرب على حدٍّ سواء)، إن لم تتِمَّ صياغتُها «في بيئتها»، وإن ضَرَبتْ صفحًا عن ميزة لبنان «الخاصّة».

أمّا الشيوعيّة، فلم يَسَعْه إلّا أن يرفضها بصفةِ كَونِها مذهبًا ماديًّا

---

(٣) «En donnant pour fondement à sa vie politique la représentation confessionnelle, le Liban a mis en évidence plus qu'ailleurs la primauté du spirituel» (*Politique intérieure*, p. 261).

(٤) «Libéralisme, communisme, socialisme, démocratie authentique ou fausse (naguère encore nazisme et fascisme odieux), pour ne rien dire de l'éternel opportunisme, cette littérature politique, est-elle vraiment faite pour nous, *hommes groupés en patrie spirituelle* (avant tout) et tutélaire, au nom de l'esprit de foi, de tolérance et de liberté, depuis toujours?» (*Politique intérieure*, p. 104).

أُقْصِيَت عنه الروحانيّة بكلّيّتها، لا سيّما أنّ «الإسلام والمسيحيّة يُجمعان على رفض المادّيّة بحكم جوهر معتقدهما» (**خواطر**، ٢، ص ١٨١)[٥]. أضف إلى ذلك اعتقاده أنّه لا يمكن أن تكون الاعتبارات المادّيّة المحض علّة وجود المجتمعات البشريّة إلى ما شاء الله، لأنّه ما من شعب يجد قوّته إلّا في نفسه. وقد كتب في هذا المعنى: «... لا بدَّ لكلّ شعب، في المدى الطويل، من أن يخشى الله حتّى يرتضيَ أن يَحكُمه حاكِم. فإن هو تخلّى عن البُعد الإلهيّ، سوف يتخلّى، عاجلًا أم آجلًا، عن الشرائع. وإذا كان للسلام أن يستتِبَّ، ولو نسبيًّا، في عالمنا هذا، فلا بدَّ لنا من أن نخشى العدالة في العالم الآخر» (**السياسة الداخليّة**، ص ١٨٩)[٦].

وهنا يُبرز ميشال شيحا التقارب بين الإيمان المسيحيّ والإيمان الإسلاميّ، ويقول: «إنّ ما يُبرِّر هذا التقارب، لا بل يفرضه، في وجه الذين يُنكرون البعد الإلٰهيّ، هو الاعتراف المشترك بالإلٰه الأزليّ»[٧]. فالبعد الروحيّ يتّخذ عندنا كلَّ مداه وكلَّ قدره، في وجه الأنظمة السياسيّة التي تسود فيها المادّيّة.

إلّا أنّ أوّليّة البعد الروحيّ، في نظر ميشال شيحا، لا تقتصر على ارتباطها ارتباطًا لا تَنفَصِم عُراه ببُنْية لبنان التي يَستمدُّ منها هذا البعدُ جوهَرَه وعلّة وجوده، بل إنّها مرتبطة أيضًا بمصير هذا البلد، المقدَّرِ له أن يعيش عيشةً ملؤها الأخطار، فلا بدَّ له من أن يكتسب خُلْقَ الجهاد ليصمُد ويواجه جميع المخاطر التي تُحيقُ به. وكيف يكتسب هذا الخلق؟ يقول شيحا: «إكتساب هذا الخلق هو أوّلًا التمرُّس بصلابة

---

(٥) «L'islam et le christianisme ensemble repoussent le matérialisme par définition» (*Essais*, II, p. 181).

(٦) «Il faut à la longue qu'un peuple craigne Dieu pour se laisser gouverner: s'il a renoncé à la Divinité, tôt ou tard il renoncera aux lois. Pour qu'une paix relative existe en ce monde, il faut qu'on redoute une justice dans l'autre» (*Politique intérieure*, p. 189).

(٧) (C'est) «la reconnaissance commune de l'Eternel qui justifie ce rapprochement, qui l'impose même, en face de ceux qui nient le divin».

النفس وبالشجاعة (. . .)، هو وضع شؤونِ الروح في مَراتبها». (**السياسة الداخليّة**، ص ١٥٥)[٨].

ومن ثمَّ، فالمطلوب أن تتوافر التنشئة المدنيّة لجميع المواطنين، ونداءات ميشال شيحا إلى الارتفاع بالنفس من دون هوادة لم تكن موجَّهةً إلى السياسيّين وحدهم، بل إلى أهل الصحافة أيضًا، والمثقّفين، والتجّار، والناخبين وسواهم، وطويلة هي لائحة الذين دعاهم إلى عدم التخلّي أبدًا، في ممارسة نشاطاتهم، عن القاعدة الأخلاقيّة.

ليس لدينا الآن متَّسعٌ من الوقت لنستعرض جميع النداءات التي وجَّهها ميشال شيحا في هذا المجال. ولِتعذُّر قيامنا بدراسة شاملة وافية، نختار بعض الأقوال التي لا نراها تَقِلُّ اليوم صوابيَّةً عنها في الأمس، لا بل نعدُّها غنيّةً جدًّا بالعِبَر في الحقبة التي نجتازها اليوم.

فعلى سبيل المثال، وفي معرضِ كلامٍ لميشال شيحا على الانتخابات النيابيّة، كتب ما يلي: «على قدرِ ما تكون الانتخابات التشريعيّة خالصةً أو تكون مصطنَعَة، وعلى قدر ما تجري في النظام أو في الفوضى، تُظهِر نُضج الشعب أو عدم نضجه، وحالةَ الأخلاق وقيمةَ القوانين. كما أنّها تحدِّدُ **موقع الأُمَّة المعنويّ** في جماعة الأمم» (**السياسة الداخليّة**، ص ٢٢٤)[٩].

وفي نداءٍ وجَّهه إلى المثقَّفين على اختلاف مشاربهم، ذكَّر بدعوة لبنان الروحيّة، وحثَّ على مزيدٍ من اللقاءات بين جميع التيّارات الفكريّة، وكتب: «لن يكون كلُّ تقدّم مادّيّ إلّا سطحيًّا وباطلًا إن لم

---

(٨) «S'aguerrir c'est d'abord entretenir en soi la fermeté d'âme et le courage... C'est mettre les biens spirituels à leur rang» (*Politique intérieure*, p. 155).

(٩) «Selon qu'elles sont sincères ou fictives, selon qu'elles se déroulent dans l'ordre ou le désordre, les élections législatives révèlent la maturité d'un peuple ou son absence, l'état des mœurs, la valeur des lois; elles marquent la place morale de la nation dans la communauté internationale» (*Politique intérieure*, p. 224).

يُرافقه نموٌّ مُوازٍ في **مَلَكات النفس** يهدف إلى حياة روحيّة **مشتركة**» (**السياسة الداخليّة**، ص ١٢٥)[١٠]. وهكذا نرى عند ميشال شيحا، أنّ القِيَم الروحيّة والأخلاقيّة هي عاملُ اتّحاد، ووسيلة نتجاوز بها تناقضاتنا، ومن هنا أهمّيّتها في بلدٍ قِوامه طوائفُ متشاركة.

وحين تطرّق إلى موضوع الإصلاحات السياسيّة أو الإداريّة التي أصبحت ضروريّة، صرّح غيرَ مرّةٍ، وبِصَيغٍ مختلفة ولكنّها تشتمل جميعها على الفكرة المحوريّة نفسها، أنّ الإصلاح الأساسيّ الذي يجب على لبنان أن يَصبُوَ إليه، إنّما هو **إصلاح أخلاقيّ** (**السياسة الداخليّة**، ص ١٢٨ و١٥٩). فبحسب رأيه، لا يمكن أن يوجد تصوُّرٌ لسياسةٍ حيَّة ومتبصِّرة، إن لم يُنْظَر إلى ضرورة وجود الوجه الأخلاقيّ في كلّ أُمّة. ولا يخلو من الفائدة أن نشير هنا إلى القواعد التي ذكَّر بها آنذاك، لشدَّة ما يبدو تطبيقها اليوم ضروريًّا. فقد كتب: «هذا البلد مصابٌ على الصعيد الأخلاقيّ في مؤسّساته السياسيّة وفي صحافته، وفي المظاهر التي يتجلّى الرأي العامّ فيه، وفي ما بدأنا نشاهده في ربوعه من تراخٍ على صعيد التعليم. وهذه المسائل الأساسيّة تُطمَسُ في ما يحيط بها من جلبةٍ وضجيج الألاعيب السياسيّة الخسيسة والصفقات الرابحة. ونتيجة ذلك **عَجزٌ مؤكَّد في إرث البلاد الخُلُقيّ**، أي في طاقات القلب والعقل التي هي ضماننا الوحيد في مواجهة سلسلةٍ معروفةٍ من أخطارٍ خارجيّةٍ جسيمة» (**السياسة الداخليّة**، ص ١٨٥)[١١].

---

(١٠) «Tous les progrès matériels seront superficiels et vains sans un développement simultané des *facultés de l'âme* dans le sens d'une vie *commune* de l'esprit» (*Politique intérieure*, p. 125).

(١١) «Ce pays est moralement atteint dans ses institutions politiques, dans sa presse, dans les formes représentatives de son opinion politique et dans un relâchement de l'enseignement qu'on commence à y voir. Et ces questions capitales sont noyées dans l'agitation et les bruits des petites combinaisons politiques et des affaires qui rapportent. Il en résulte un déficit certain dans le patrimoine moral de ce pays, dans les forces du cœur et de l'intelligence, qui sont notre seule garantie en face d'une série connue de graves dangers extérieurs» (*Politique intérieure*, p. 185).

وبعد مدّةٍ أعاد الكرّة وكتب: «في لبناننا هذا، الذي تقوم مسوِّغات وجوده بمعظمها على أساسٍ روحيّ، بلغت شهوة المال أقصى مداها (. . .) وأصبحنا، سواءٌ أَرِجالَ أعمالٍ كنّا أو سياسيّين منغمسين إلى حدٍّ خطير في الأعمال، لا نميّز تمييزًا كافيًا بين الخير والشرّ، بين الحلال والحرام (. . .)». وختم بقوله: «لبنان بلدٌ يبقى فيه التنزُّه عن الغرض، وعزَّةُ النفس، **رأسَ ماله السياسيّ** الأوّل (. . .) لذا من واجب الحكومة أن تتمسَّك أشدَّ التمسُّك بكلّ ما يحافظ على سُمعة الدولة ونقاءِ صفحتها، وأن تسهر على **احترام قواعد الأخلاق لأنّها من مقوّمات السلامة العامَّة**» (**السياسة الداخليّة**، ص ١٨٧)[١٢].

يرى شيحا أنّ صيانة الحرّيّات هي بحدّ ذاتها قاعدة أخلاقيّة. فهي تستوعب، مع روح التسامح، تلك القوى الروحيّة التي لا ينفكُّ يقول إنّها مدعوَّة لتكون روحَ السياسة اللبنانيّة. وأقواله في هذا الصدد، إن نظرنا إليها عبر مَوْشُور أحداث الساعة، أي الأزمنة الكئيبة التي نعيشها، يتردَّد لها في قلوبنا صدًى حزين ينفذ إلى الأعماق. فقد كتب: «علينا أن نوقظ القوى الخُلُقيّة من نومها في لبنان، علينا أن نتعلَّق بها. اليوم يوم العودة بالذاكرة إلى أنّ هذا البلد مؤسَّس على تلك القوى وعلى ما تمثِّله من روحانيّة ومن تسامح ومن حرّيّة. اليومَ يومٌ ينبغي أن نقتنعَ فيه بأنّ التقدّم المادّيّ كلّه يكون هباءً إذا ضاعت القوى الروحيّة، وأنّ الطُرُق ليست بشيء وأنّ المباني ليست بشيء من دون الحرّيّات. فإنّما نعمل لحساب العدوّ إذا بنينا في حين تتداعى قوانا

---

(١٢) «Dans ce Liban dont les raisons d'être sont pour la plupart d'odre spirituel, l'appétit de l'argent a pris des proportions extrêmes... Nous ne distinguons plus assez en tant qu'hommes d'affaires et politiciens mêlés si dangereusement aux affaires, entre le bien et le mal, entre ce qui est licite et ce qui ne l'est pas... Le Liban est un pays où le désintéressement et la force d'âme restent le premier capital politique... C'est pour cela que le Gouvernement doit s'attacher avec rigueur à maintenir la réputation d'honnêteté de l'Etat; c'est pour cela qu'il doit veiller au respect des règles morales qui sont de salut public» (*Politique intérieure*, p. 187).

الأخلاقيّة» (**السياسة الداخليّة**، ص ١٨٩)[١٣].

في مقالة عنوانها «كلمات ضائعة»، تساءَل ميشال شيحا عمّا تُراه، ضِمْنَ ما وردَ في مؤلَّفاته، يصمد في وجه امتحان الزمن، وأعرب في الوقت نفسه عن أمله في أن تشهد تلك النواةُ الصلبة، للأجيال الآتية، على إيمانه الثابت الراسخ، إيمانٍ كان غذاءً ومحرّكًا لأقواله، إيمانٍ قال فيه إنّه «إيمان وطيد» (**خواطر**، ٢، ص ١٠٧). أفلا يَصُحّ أنّ هذا البُعدَ الروحيّ والأخلاقيّ في مؤلَّفاته، هو، إذا تجاوزنا نظرته، النبويّة في غالب الأحيان، إلى مجرى الأحداث، أساسُ مذهبه السياسيّ، بل لُبُّه وجوهره؟ وكان يشعر بأنّ هذا البعد هو عظيم القدر، واسع الآفاق، يرسم للبنان دعوتَه التي أقلّ ما فيها أن يكون عبرةً للأمم، الكبيرة منها والصغيرة. أفلم يَكْتب أنّ «بلدًا صغيرًا يستطيع أن يدفع بالعالم إلى الأمام، لا بل يستطيع أن يخلّصه بفضل القوى الأخلاقيّة» (**تنويعات في البحر المتوسّط**، ص ٨٩)[١٤]؟.

لا شكَّ في أنّه، لو رأى الأوضاع اليوم، لخاب أَمَلُه أيَّما خيبة. إلّا أنّ هذا التمزّق الذي كان لِيَحُزَّ في قلبه لو وُجِدَ الآن بيننا، إنّما هو ما يضغط اليومَ بكامل ثقله على كاهل كلّ لبنان. ولَئِن أردنا أن يندمل ذلك الجرح، فما لنا من دواء إلّا أن نُجْرِيَ فينا وفي مؤسّساتنا عمليّة تطهير، تلك التي ما برح ميشال شيحا يدعو إليها، والتي تبدو اليومَ أشدَّ ضرورةً لبقائنا، منها في أيّ وقت.

(نقله إلى العربيّة **الأب كميل حشيمه اليسوعيّ**)

---

(١٣) «Il faut réveiller au Liban les forces morales endormies. Il faut s'attacher à elles. C'est le temps de se souvenir que ce pays est fondé sur ces forces et sur ce qu'elles représentent de spiritualité, d'esprit de tolérance et de liberté. C'est le temps de se dire que tout le progrès matériel serait vain si les forces spirituelles étaient perdues, que les routes ne sont rien, que les édifices ne sont rien, sans les libertés. C'est travailler pour l'ennemi que de bâtir dans la déroute des forces morales» (*Politique intérieure*, p. 189).

(١٤) «Un petit pays peut entraîner le monde et peut-être le sauver avec les forces morales» (*Variations sur la Méditerranée*, p. 89).